مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد السادس ـ إبريل 2015م

المرأة والفلسفة في العصـــر الوســـيط
" كاترين السينية نموذجاً "

د. عايدة نصيف أيوب(*)

تمهيد:

إن مكانة المرأة فى العصور الوسطى على خلاف أى فترة من تاريخ المسيحية؛ إذ نجد مساهمة النساء الفكرية فى أوربا أثناء تلك الفترة لا تزال غير مفهومة بشكل جيد، وقد أقتصر الفكر واللاهوت الأكاديمى فيما يسمى بلاهوت الرجال، وهو الأكثر شعبية ومن أمثاله القديس أوغسطينوس صاحب المبدأ الشهير " أؤمن كى أتعقل " أى الإيمان ثم العقل (أوغسطينوس،2003، ط7، ص53)، فقد أثر الاتجاه الروحى على الاتجاه العقلى في بداية العصور الوسطى، وجاء توما الأكوينى فى القرن الثالث عشر، ووظف الفلسفة الأرسطية فى صياغة اللاهوت المسيحى الكاثوليكى، وفى صياغة المفاهيم المسيحية. (Gilby, T, 1982. P 90 & Inglis, j, 2002, p15)

وبين هذا وذاك ضاع دور المرأة فى الفلسفة المسيحية وخاصة فى فلسفة العصور الوسطى، ولكن كسرت " القديسة كاترين السينية Catherine of sinnea "هذه القاعدة بعد عهد القديس" توما الأكوينى"؛ فقد شاع منذ تلك العصور وحتى الآن أنه لم يكن هناك إسهامات فكرية للمرأة فى العصور الوسطى، ولكن مع البحث وجدتُ في العصر الوسيط المتأخر، أى القرن الرابع الميلادى نموذج للمرأة المفكرة، يتمثل فى "كاترين السينية"، وكان من قبلها "هيلغاردبنجن" (1098 – 1179)، و"مارجرى كامب-Margery kempe "، و"مارجريت بورت-Marguerete porete"، ولكن لم يكن لهن سوى خواطر روحية وبعض الصلوات؛ وعندما نتوقف عند "كاترين" السينية (1347 – 1380 م) نجد أن نشأتها وتعاليمها وأعمالها قد ساهمت فى بلورة فكرها الذى يوصف بالنزعة والصبغة الروحية، ولنتوقف قليلاً عند نشأتها.

نشأة كاترين السينية ومنهجها:-

(*) د. عايدة نصيف أيوب: دكتوراه في الفلسفة- كلية الآداب- جامعة القاهرة.

ولـدت كـاترين سـنة 1347 ميلاديًـا فـى جمهوريـة سـيينا فـى تُسـكرى Tuscoriy، وتوفيـت فـى سـن ثـلاث وثلاثـين سـنة عـام 1380، ولقبـت بطبيبـة الكنيسـة. وكـان سـائدًا فـى ذلـك الوقـت كـلاً مـن الاتجـاه الصـوفى Mystic، والنشـاط السياسـى Political Activist، وبـدأت تجربتهـا الاسـتعلانية The Revelation فـى سـن السادسـة عشـرة، فقـد عاشـت فـى ديـر الآبـاء الـدومينكان مـدة ثـلاث سـنوات (Heffern. R, 2009,p14)، فهـى دومينكانيـة الأصـل، وهـى صـورة مثاليـة للمـرأة القديسـة، ونجـد ذلـك فـى رسـائلها "The Diolago"، وصـنفت مـن ضـمن علمـاء النسـوية، فقـد كانـت أكثـر مـيلاً لقـراءة الماضـى بـين الـذكور، وكـان لهـا قـدرة علـى التعبيـر البـاطنى القـائم علـى الخبـرة الروحيـة، وقـد أبـرزت الكنيسـة صـورة "كـاترين" فـى المقـام الأول مـن خـلال رسـائلها، وخاصـة فـى فتـرة الصـراعات القائمـة بـين البابويـة وفلورنسـا مـن ناحيـة، وبـين سـيينا مـن ناحيـة أخـرى ، حيـث كـان صـراع حـول كيفيـة تحديـد حـدود العلاقـة بـين الاتجـاه الروحـى والاتجـاه السياسـى، وإلـى أى مـدى يمكـن أن يمـارس البابـاوات مـا اعتبـره الـبعض السـلطة الزمنيـة داخـل حـدودها السـيادية، وكـان ذلـك مصـدر اشـتباك عنيـف (اسـيذورس،1991، ص439:446) (Luongo.F.T, 2006, p168 & Copleston,F.C.,2001,p95).

ومـن هنـا سـعت "كـاترين" إلـى تمكـين كـل فـرد للاتصـال بـالله مـن خـلال خطاباتهـا؛ سـاعية لتحقيـق الإيمـان الكـاثوليكى مـن خـلال رسـائلها المتنوعـة، والكثيـرة فـى مجـالات الحيـاه؛ فقـد تقابلـت مـع المـدنيين والعلمـانيين وكرسـت الكثيـر مـن النسـاء للعمـل فـى المهـن الدينيـة والخدميـة (Cahal.P. J,2006, Pelikan.J,1975& p591).

وأعربـت "كـاترين" عـن إتجاههـا مـن منظـور دينـى؛ لتـدعو إلـى السـلام، والانسـحاب عـن حـب الـذات، وإدانـة الفاسـدين مـن القساوسـة، وتكمـن دعوتهـا فـى الحقـائق الأبديـة، والفهـم الواحـد للـدين الـذى يميـل إلـى عـزل الـدين عـن السياسـة، ووظفـت ذلـك للقضـية البابويـة مـن خـلال نصـائحها القويـة إلـى البابـا (غريغـورى التاسـع) فضـلاً عـن غيـره مـن الأسـاقفة، وغالبـاً كـان ينظـر إليهـا علـى التزامهـا وجرئتهـا علاجًـا فـى تضـميد جـروح الكنيسـة ولكـن موقعهـا كـامرأة والاسـتماع لهـا يكـون بالقـدر القليـل مـن الناحيـة السياسـية مقارنـة برجـال الـدين المـروجين للسياسـة؛ فقـد جمعـت "كـاترين" حولهـا الكثيـر مـن الأشـخاص المختلفـين؛ إذ كانـت مكرسـة كـأم روحيـة (Luongo.F.T, 2006,2006 p169: 170)، ويتضـح ذلـك مـن خـلال رسـائلها التـى تعبـر عـن تجربتهـا الصـوفية Her Mystical Experience وسـوف يتضـح ذلـك فـى السطور القادمة بعد عرض أهم مؤلفاتها.

مؤلفات كاترين السينية:

نجد لها "مقالات فى التأمل المسيحى" ، و "الحوار"، و"العناية الإلهية"؛ ولها كتابات فى التصوف؛ فكل كتاباتها تبحث فى المجال الميتافزيقى؛ بالإضافة إلى فلسفتها التعليمية فى الكنيسة فى عصر النهضة The Renaissance.ومن أكثر التعاليم الرئيسية فى الكتابات السابقة؛ هى معرفة الذات، ومعرفة الله؛ حيث قامت بتقديم التقليد الروحى المسيحى من جديد باستخدام عدد من الصور المبدعة، ورأت أن معرفة الذات أمر حيوى للتقدم الروحى، وهى بمثابة مقدمة لمعرفة العقل. (Mcdermott,T,2007,p638)

تعاليم "كاترين السينية" بين الفلسفة والتصوف:ـ

كانت "كاترين السينية" المعلم النموذجى للتعليم الكنسى بعد كل من القديس "أوغسطين"، و"توما الأكوينى"، و"أنسلم"، و "بونافنتورا"؛ فقد قامت بعرض اللاهوت المسيحى وصياغته صياغة واضحة من خلال ركيزتين: الأولى،استخدامها للمفاهيم الفلسفية كالقياس التمثيلى، وثنائية الجسد والروح الشهيرة التى أخذ بها الفلاسفة اليونانيين كأرسطو وأفلاطون. أما الركيزة الثانية، فهى منطلقة من تجربتها الصوفية لمعرفة الله؛ ولكن من خلال مبدأ فلسفى سقراطى (أعرف نفسك)؛ حيث رأت أن معرفة الله تبدأ من معرفه الذات.

فقد كانت تعتقد "كاترين" أنها لا تحصل على الحكمة من الأشياء المكتسبة عن الله؛ وإنما من خلال الحياه الروحية، تقول:" عشقت الحكمة من الحياة الروحية" (Saint Catherine,1907, p5) وذلك على عكس القديس أوغسطين الذى وصل إلى معرفة الله عن طريق الأشياء المكتسبة من العالم المادى إذ يقول "سألت الأرض فقالت لى "لست الهك" كذلك أجابنى كل حى على سطحها؛ سألت البحر وأغواره والكائنات الحية التى تسرح فيه وتمرح فأجابتنى "لسنا الهك" ، بحثت عنه فى الأعالى، وسألت رياح الجو، فأجابتنى مملكة الهواء وكل ما فيها "لسنا الهك" سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فأجابت كلها: "لسنا الإله الذى تبحث عنه" ..... فهتفت جميعها بصوتها القوى " إلهنا هو خالقنا"، كان تأملى فيها سؤالاً وجمالها جواباً... وقالت المخلوقات الساكنة الأرض والسماء لسنا الله بل هو خالقنا" (أوغوسطينوس، ط2003/7، ص198 & Luscombe,D,1997).

فالمنهجين مختلفين عند كل من "كاترين" وأوغسطينوس فالحكمة تراها "كاترين" منبثقة من موهبة الروح القدس، وهى موهبة صوفية، فقد طلبت "كاترين" أن تتعلم الحكمة من خلال صلاتها من قبل الرب، فهى ترى أن المعلم الحقيقى يجب أن يسمح لنفسه أن يتعلم من الله تقول:

"أسبحك أنت أيها الآب رب السماء والأرض، لأن لديك هذة الأشياء المختفية من الحكمة" (Saint Catherine, 1907, p54).

الفضيلة بين الروح ومعرفة الذات عند كاترين:

هناك بعض الافتراضات سيطرت على الكنيسة فى العصور الوسطى وخاصة على ضمير العالم المسيحى، كالطقوس الدينية التى يقوم بها رجال الكنيسة الخالية من الاتجاه الروحى، ومن ثم أصبحت مجرد عبادات مادية، فجاء دور العلمانيين لرفض دور العقيدة فى العصور الوسطى، ورفض القيود المفروضة على كثيرًا ممن سقطوا، ليعبْروا عن فكرة المسيحية الحقيقية (الا وهى علاقة خاصة بين الإنسان والله) للخروج عن سلطة الكنيسة (Saint Catherine, 1907, p54).

ومن هنا خرجت القديسة "كاترين"، لتقدم وتعيد عرض بعض المفاهيم التى تمثل العلاقة الروحية الحقيقية بين الله والإنسان من خلال كتابها "حوارات"، وخاصة مقال "العناية الإلهية" التى تحدثت فيه عن معرفة الذات Knowledge Self، ومعرفة الله، والروحانية Spirituality، والتصوف، والتقليد المسيحى، لتعلن أنها قد جاءت بهذا التعليم من خلال الصلاة نفسها (Mcdermott,T,2007, p.638)

وهى بذلك تختلف مع توما الأكوينى الذى رأى أن قضية المعرفة البشرية هى قضية العلاقة بين الإيمان والعقل، فالحقيقة عند الفلاسفة مصدرها العقل وحده، وأما اللاهوتيون فعندهم أن ثمة اختلافاً بين العقل والإيمان بشأن الحقيقة، وكذلك واجهت الكنيسة إشكالية هامة وهى الصراع بين ميدان العقل وميدان النقل(Gilson,E, 1948, p37)

أما "كاترين" السينية فمصدر الحقيقة والمعرفة والفضائل نتاج مدى علاقة الإنسان الروحية بالله. تقول "لا ينبغى الاعتماد بشكل رئيسى على التكفير عن الذنب؛ بل الهدف من ذلك الفضيلة وكيفية تكوينها لاستقبال الحياة ... لتجعل كل إنسان يحب".وتقول أيضاً "أن الأعمال المقدسة ... هى الفضائل الجوهرية المؤكدة للروح ... فلا تعطى صفة الفضائل عن طريق القيام بالفعل الخارجى، أو مع أنواع التكفير التى هى صكوك الفضيلة ... فالتكفير وحده دون القيام بالفضائل لا يُرجى منها إلا قليل ... إن لم يكن تنفيذ لروح التكفير. (Saint Catherine, 1907, p15)

تنقد القديسة "كاترين" فيما سبق التكفير القائم على صكوك الغفران الذى يهتم بالممارسات الخارجية لأفعال الإنسان دون تنمية الروح

بالفضائل؛ فهى تسعى إلى إيجاد وحدة بين الشكل والموضوع، وبين الصورة والمضمون.

وتقول: " لتجميع الفضيلة ينبغى القيام بها فى ضوء معرفة الذات.... وهذه المعرفة هى جذور الفضيلة...، والتواضع هو طريق الفضيلة... لأنه لو لم يكن هذا التواضع فى النفس والروح ... يحدث سلب للروح وتكون النفس حمقاء" (Saint Catherine, 1907, p15). ترى "كاترين" أن التكفير ليس غاية ولكنه وسيلة، لتحقيق الفضيلة فى النفس الإنسانية من خلال معرفة الذات التى هى الأصل؛ لتكوين الفضيلة، وإذا كان التكفير وسيلة للفضيلة؛ فقد وضعت "كاترين" التواضع طريق له، وقامت بربط فضيلة التواضع بالروح والنفس؛ فإن غاب التواضع تغيب الروح وتصبح النفس كما تقول حمقاء.

ولكن كيف يتم اتحاد التواضع بالنفس والروح؟ تجيب "كاترين" من خلال حواراتها بعرض كيفية اتحاد الحب بالتواضع فى النفس عن طريق القياس التمثيلى، وهو تشبيه حالة من الواقع المادى بحالة من واقع الإنسان. تقول: "مثل سطح الأرض، والشجرة نبت فى وسط الارض ... وتتغذى الشجرة من الأرض ... فهل تعرف كيف تتلاحم الفضائل؟ فالروح هى شجرة موجودة من قِبل الحب الذى يمثل الأرض ... وأن غاية هذه الروح مؤسسة على خيرية كاملة هو حب الله ... ومن الضرورى أن جذور هذه الشجرة هو شرط نمو الروح" (Saint Catherine, 1907, p15).

فالقديسة "كاترين" فيما سبق تستخدم القياس التمثيلى لتقييم علاقة بين الروح والحب الأنسانى الذى هو مؤسس على الحب الإلهي، ولم تكتفى بذلك؛ بل وصفت الحب الإلهي بمحيط الدائرة الذى ليس له بداية أو نهاية.

كما قامت بوضع تنظير للإنسان لمعرفة نفسه عن طريق ذلك الحب. تقول "كاترين": "هذه هى معرفة نفسى ونفسك وجدت فى ارض التواضع الحقيقى Humility True الذى هو أوسع مثل قطر الدائرة. وهذا كمثل معرفة ذاتك وذاتى. ومن ثم شجرة الحب تغذى نفسها من أرض التواضع. والذى يخرج من سيقان شجره الحب هو الروح وهو "ما يجعل أنا فى الروح والروح فىَّ"، هذه الشجرة تنتج أزهار تكون بمثابة عبق الفضيلة مع رائحة متنوعة وكثيرة؛ فالثمار من نعمة الروح.. بها رائحة زكية من الثناء والمجد. وذلك هو الهدف" (Saint Catherine, 1907, p15).

تبحث "كاترين" عن الفضيلة من خلال العلاقة بين النفس والروح والحب والتواضع؛ لتصل إلى الفضيلة، ولن يتحقق ذلك إلا من خلال

المبدأ السقراطى "أعرف ذاتك" أو "أعرف نفسك" وذلك ما فعله بعض الفلاسفة فى العصر الحديث عندما نذكر "بليز بسكال" (1623– 1662م) ودعوته إلى الدين فى كتابه "الخواطر" حيث يرى إن إله المسيحيين إله محبة وعزاء والغرض الذى يرمى إليه بسكال الاستغناء عن الميتافزيقا للرجوع إلى النفس والنظر فى حالة الإنسان بالمبدأ السقراطى "اعرف نفسك" لمعرفة الله حيث يميل الإنسان إلى النفس لتحمله على طلب الله بدلاً من أن يفرض الله على الإنسان (يوسف كرم، 1969، ص 93). فهو مبدأ قائم على الحوار بين الإنسان ونفسه، وقد وظفته "كاترين" كمنهج روحى لها فى العلاقة مع الله.

فهى لديها سجل رائع من العقيدة والحوار الروحى، والحكمة الصوفية، واكتساب المعرفة، وتأكيدها على إنه لا يمكن التشكيك فى تعارض معرفة الله مع العقل البشرى؛ وذلك ما أكده البابا بولس السادس فى عام 1970 ميلاديًا، حينما أعلن أن "كاترين" من معلمى الكنيسة، ورأى أن حكمتها تظهر بعمق ووضوح من خلال استيعابها لحقائق الأسرار الإلهية الواردة فى العقيدة المسيحية (Boulding. C ,2004, p163).

إن اتجاه "كاترين السينية" إتجاهًا روحيًا مثل القديس أوغسطينوس؛ ولكن مع اختلاف المنهجية؛ فمنهج "كاترين" مؤسس على الحوار بينها وبين الله الناتج عن الخبرة الروحية؛ أما اتجاه أوغسطينوس مؤسس على الاعتراف من خلال "خواطر فيلسوف" فمثلاً يقول عن خبرته الحياتية التى عاشها فى نوعية حب العالم "إن كنت تحب العالم فلا تحبه بعد الآن، إن سلخت قلبك عن حب العالم أدخلت فيه حب الله وسكنت فيك المحبة التى لا يصدر عنها أدنى سر" (اوغوسطينوس، 2004، ط7، ص26).

وفى حتمية الموت يقول: "أن يلاحق الإنسان حياته طويلاً، شىء، وأن يسير فيها ببطء شىء آخر؛ وبالنتيجة؛ فمن يقطع على طريق الموت زمنًا طويلاً لا يعنى أنه يتباطأ فى سيره؛ إنما يقطع مسافة أطول ... وبما إنك مولود ضمن المحتم عليك أن تموت؛ المرض ضرورى هاهنا ليدفع بك إلى الموت، (اوغسطينوس، 2004 ، ط7، ص36).

إن "كاترين" تختلف عن أوغسطين من خلال كلماته سواء فى " مدينه الله" أو "خواطر فيلسوف" أو "الاعترافات"[1]، إذ نجد أن منهج

[1]- لمزيد من التفاصيل انظر، أوغسطين، مدينه الله، جـ1،2002، أوغسطينوس، خواطر فيلسوف، ط7، 2004، أوغسطينوس، الاعترافات، 1987.

أوغسطين فى هذه الكتابات قائم على أن حياة الإنسان إما على الأرض أو السماء، عكس "كاترين" التى اتخذت من تجربتها الصوفية طريق لمعرفة الإنسان، والله وخدمة الإنسان للمجتمع، فالإنسان يمكن أن يجمع بين العالم المادى والعالم الروحى.

بالإضافة إلى ذلك عملت "كاترين" مع الفقراء، ومساعدة ضحايا مرض الطاعون؛ وتُبرز رسائلها دور الدين فى خدمة المجتمع المدنى، وتعطى دروسًا من خلال تجربتها الروحية أشكال فى الصوم والصلاة من أجل الوحدة، والسلام فى الكنيسة والمجتمع، ولها أيضًا دور فى المجال السياسى (Parsons.G.A,p863) & (Heffern. R, 2009,p14).

ويتشابه معها فى ذلك الأب متى المسكين اللاهوتى المعاصر الذى رأى أن المسيحى عليه أن يوفق بين جانبين أو وطنين: الوطن الأرضى، والوطن السمائى ولا يتعارض ذلك مع مفهوم المسيحية (متى المسكين، ط3، 1963، ص67) ومن خلال هذه الكتابات. وخاصة كتابات "كاترين السينية"- يتضح أن المسيحية هى منهج لحياة كاملة، ونتابع ذلك مع "كاترين" وبحثها عن الفضيلة المؤسسة من خلال النفس والروح عن طريق معرفة الذات الإنسانية لتصل إلى طريق معرفة الذات الإلهية. وتطرح "كاترين" سؤالاً: "ما الذى يمكننى فعله لتحمل المعاناة من أجلك يارب؟ وتجيب قائلة يعمل الإنسان أعمال متعددة مع التحمل والصبر. جنبًا إلى جنب مع الاتحاد بالفضيلة التى هى متأصلة فى النفس من أجل الحصول على استحقاق ثمار النعمة. فالعمل على المغفرة والتكفير عن الذنب، والتمارين البدنية الأخرى يمكن ملاحظتها على أنها مجرد وسائل لتجميع الفضيلة وليس شرط اساسى (Saint Catherine, 1907, p17).

تعتقد "كاترين" فيما سبق أن السعى لمغفرة الذنب مع الطقوس والتمارين البدنية هى مجرد وسائل تكميلية لاتحاد الروح بالفضيلة وليست شرط أساسى... وهنا أطرح السؤال: ما هو الشرط الأساسى لتحقيق الفضيلة التى تتحد بالروح؟ ووجدتُ الإجابة فى قول "كاترين": "ينبغى أن أنضم إلى عاطفة الحب الذهبى وفى هذه الحالة سيكون ممتعًا بالنسبة لى.... أن أكبح الجسم وأدمر الجسد.... أى موت الجسد؛ لتنمية الروح.. والزهد فى كل شيىء وإخضاعه لإرادتي.... وأن الروح تكون لها القيادة" (Saint Catherine, 1907,p17)

وهنا تعرض "كاترين" الصراع بين ثنائية الجسد والروح، تلك الثنائية التى شغلت الكثير من أذهان الفلاسفة سواء فى الفلسفة اليونانية أو الوسيطة أو الحديثة والمعاصرة، فقد قال بها الفلاسفة الذين تأثروا بعلوم

اللاهـوت كتومـا الأكـوينى، وديكـارت، ومـالبرانش، وكيركيجـارد الأب الروحى للوجودية.

يقـول ديكـارت عـن طبيعـة علاقـة الجسـد بـالنفس والتـى هـى روح بسـيط: "الـنفس روح بسـيط مفكـر، والجسـم إمتـدادًا قابـل للقسـمة، لـيس فـى مفهـوم الجسـم شـيىء يخـص الـنفس، ولـيس فـى مفهـوم الـنفس شـيىء ممـا يخـص الجسم" (يوسف كرم، 1969، ط5، ص62).

بالإضـافة إلـى علاقـة الـنفس بالجسـد عنـد "كـاترين" نجـد أن تحقيـق الفضـيلة عنـدها يـأتى مـن خـلال مجموعـة مـن الشـروط: ألا وهـى العمـل علـى مغفـرة الـذنب مـن خـلال التمـارين البدنيـة، بـل وتحقيـق الشـرط الأساسـى لاتحـاد الفضـيلة مـع الـروح هـو الانضـمام إلـى " عاطفـة الحـب الـذهبى" أى الحـب الإلهـي، ومـن ثـم كـبح جِمـاح الجسـد والـذات الماديـة وفـى هـذه الحالـة يكـون الجسـد فـى حالـة تبعيـة للـروح لأنـه خضـع لإرادة الإنسـان، ومـن ثـم تكون الروح لها القيادة.

وتـرى أيضًـا القديسـة "كـاترين" أن الفضـيلة تتحقـق مـن خـلال اتحـاد الـروح الإنسـانية بالحـب الإلهـي، هـذه الـروح الممتلئـة بالحـب تعطـى الحيـاة لجميـع الفضـائل والخيـرات؛ فـالروح بـدون الحـب عنـد "كـاترين" لا تسـاوى شـيئًا، إذ تقـول:" هـذا الحـب بـلا نهايـة وبـلا حـدود.. والآلام والعـذاب الـدائم. يعطى لها النعمة من قبل المحبوب". (Saint Catherine, 1907, p17)

ذلـك الحـب المؤسـس فـى ذات الإنسـان يتحـول إلـى حـب الآخـرين؛ فـإذا تحقـق للـروح مـا سـبق وجـدت نفسـها حاصـلة علـى المعـارف ومنهـا معرفـة الـذات التـى هـى معرفـة الله. تقـول "كـاترين": "الـنفس هـى مـرآة الله فينـا، أى أن المعرفة الحقيقية للذات هى معرفة لله". (Saint Catherine, 1907, p18)

فقـد اهتمـت "كـاترين" بعلاقـة الـنفس بـالروح بالجسـد، وعلاقـة الـروح الإنسـانية بـذات الله عـن طريـق تجربتهـا الصـوفية التـى أدخلتهـا فـى حـوار محتـواه طـرح أسـئلة إلـى الله، وكيفيـة معرفـة الحقيقـة مـع نـور الإيمـان Faith of Light، ومعرفـة " نفسـك ونفسـى" علـى حـد قـول القديسـة "كـاترين"، ووصـولها إلـى كـم مـن المعرفـة الحقيقيـة. وتزيـد "كـاترين" علـى أن الآلام والعـذاب وسـيلة لحيـاة النعمـة مـن قبـل المحبـوب للمحـب، أى مـن قبـل الله للإنسـان. وتشـير إلـى أن الحـب الـذى تحصـل عليـه الـروح لـيس لأجلهـا، أو منفعـة خاصـة بهـا؛ بـل للآخـرين تقـول: "فـالروح لا تأخـذ شـيئًا لـذاتها ولكـن للآخـرين. فأقـل الأعمـال تثمـر ثمـرًا.. فالحـب الحقيقـى يُعـرف جيـدًا. بمـا يبـدد كل ظلام يحيط بالجهل" (Saint Catherine, 1907, p17).

هذا الحب عند "كاترين" هو ثمار الفضيلة والذى يمتد من السماء إلى الأرض؛ أى من الله إلى الإنسان، ومن نفس إلى نفس، ومن حب الذات إلى حب الآخرين (Saint Catherine, 1907, p18).

فيما سبق وضحت "كاترين" العلاقة بين الفضيلة واتحادها بالروح من ناحية، وبين اتحاد الروح بالحب الإلهي من ناحية أخرى؛ كى تعيد تقديم العلاقة الحميمة من خلال الحوار بين الله والإنسان، وبعبارة أوضح الحوار بين أسئلة تطرحها "كاترين" وعبارات الله فى الإنجيل؛ فهى صاحبة الروح والعقل والحقيقة؛ وكذا تنطلق إلى المزيد من تعميق الكثير من الحقائق؛ نتيجة لصلاة الإيمان وتجربتها الروحية. فإنها لم تتعلم عن طريق وسائل عادية من قبل الإيمان والاستماع إلى الكتب المقدسة والوعظ فى الكنيسة؛ وإنما من خلال الحياة الخاصة بها فى الممارسة العملية للصلاة. ففى حوار "كاترين" نجد أن الله نفسه هو المصدر الأول للتعلم بالنسبة لها. (Sant Catherine,1907, & Boulding. C , 2004, p. 163 .(p90, 290, 450

إن بعض الأشياء التى تعلمتها "كاترين" من تجربتها الصوفية هو استنتاج حقائق ناتجة عن علاقة الروح الإنسانية مع الله؛ فكانت تحاور الله من خلال أحكام الإنجيل، وعلى سبيل المثال رسالة بولس الرسول إلى أهل كورنثوس (9: 12)، فهى ذات قاعدة استثنائية حيث لديها موهبة التأمل والتفكير (Boulding. C, 2004, p166).

ويظهر ذلك جليًا عند "كاترين" عندما تقول فى محاوراتها "العقل فى ذاته هو مرآه الله فينا وهو خيرعون من خلال النقاء الذى به... ولهذا السبب زاد النور والمعرفة فى الروح.... وفى نفس الوقت تضاءل الحزن بواسطة الأمل الذى أُعطى من قبل الحقائق العليا Supreme Truth، وكما أن النار تنمو عندما تتغذى على الخشب، كذلك ينمو النور فى الروح مثل امتدادها على نحو لا يطيقه الجسد دون رحيل عن الروح؛ ومع ذلك لم يكن هو الذى أحاط بواسطة قوته، بل هى قوة عليا، ومن غير ذلك لم يكن من الممكن أن يحيا معًا طويلاً؛ ومن ثم فإن هذه الروح تُطهر بواسطة نار الحب الإلهي، والتى وجدت فى معرفة ذاتها من الله" (Saint .(Catherine, 1907. p18

تتحدث "كاترين" عن اتحاد الحب الإنسانى بنار الحب الإلهي عن طريق المعرفة التى وجدت من قبل الله، فقد كان هدفها إصلاح الحياة الروحية لتنعكس على المجتمع، ودعوتها إلى الإصلاح ليست ظاهرية فقط، وليست مجرد رجوع إلى الفكر الآبائى؛ بل كان تجديدًا داخليًا منطلق

من تعاليم الله، وتعمق فى الدين، وتحرير الإنسان من السلطان البشرى للكنيسة، فمن خلال سيرتها الذاتية نجد إنها ليست مجرد ضمن سير القديسيين التقليديين فى تاريخ الكنيسة؛ بل صاحبة لهجة ومحتوى من قبل كتاباتها الخاصة، وبالدرجة الأولى صاحبة الحوار مع الله بصوت عالٍ، وكثيرًا من رسائلها لا زالت على قيد الحياة موجودة جنبًا إلى جنب مع بعض الصلوات المسجلة فى الفكر الكنسي، مما يساعد على معرفة تفاصيل حياتها الروحية.

وبالإضافة إلى ذلك كانت "كاترين" ذو عقل يقظ وذاكرة قوية، لأنها مارست التفكير والتأمل فى وقت مبكر من حياتها، فقد أمضت ثلاث سنوات فى عزلة كاملة للتأمل ؛ وذلك شىء غير طبيعى فى العصور الوسطى، كما أنها اظهرت بعض التقوى الطبيعية من خلال ما تعلمته .(Boulding. C, 2004, p165)

وبالإضافة إلى الجانب الروحى "لكاترين السينية" نجد لها دور فى ظل المناخ السياسى والاجتماعى فى ذلك الوقت، وفى ظل الظروف الدينية والكنيسية بين فلورنسا والبابوية، إذ تظهر "كاترين" على أنها ذي شخصية وسيطة للسلام، ولها أنصار من جانب البابوية؛ فقد كانت مهمومة بشأن الحروب الكنيسية آنذاك، وكانت واعظة ضد الحروب الصليبية، ودعوتها إلى عودة البابا إلى روما .فقد دخلت "كاترين" فى مجال السياسة من خلال تعاليمها وإرشادتها الروحية، وكان لها أنصار فى الكنيسة بشأن الحياة السياسية والأبدية بعد سنه 1374م، حيث نجد من خلال رسائلها أنها قد درست على قدم وساق الحركات السياسة فى إيطاليا، فكانت نابغة وذلك ناتج عن قداستها ورؤيتها لبلدها بشأن الصراعات السياسية، فكانت لها عين اختيار بعناية فائقة ويتضح ذلك من خلال خطاباتها لباباوات الكنيسة. (Luongo.F.T,2007,p146) واهتمامها بالشأن السياسى ناتج عن حبها للإنسان فى مجتمعها.

وبالإضافة إلى دورها الروحى والسياسى- كما ذُكِرَ من قبل- نجد دورها الاجتماعى؛ فقد عملت على مساعدة الفقراء وضحايا مرض الطاعون وذلك يتضح من خلال محاوراتها (Saint Catherin, 1907) وقد أعطت دروسًا للصلاة والصوم من خلال تجربتها الروحية من أجل الوحدة والسلام فى الكنيسة والدولة (Parsons.G.A, p & Hook.J,1980,p28 .(863

تقول فى حوارتها من أجل إصلاح الكنيسة والعالم، ولنمو الرجاء بكل ثقة من قبل ذات الله: " يا إلهى حول رحمتك على شعبك، وعلى

الكنيسة، لتغفر الخطايا لأنك لو غفرت، أعطيت لهم نور المعرفة The Light of Knowledge؛ ومن ثم يقدمون بأنفسهم العهد للخير الذى لا حصر له؛ ولنجاتهم من الخطيئة المميتة، ومن اللعنة الأبدية، ومن ثم الخلاص من الذين هم أداة كل شر؛ ولهذا السبب نصلى لإلهنا، وللحب الأبدى The Eternal Love لفعل الرحمة مع الشعب، ولن أرحل قبل حضورك حتى احصل على رحمتك لتكون لى الحياة، أنا وشعبك للخلاص من الموت والظلام" (Saint Catherine 1907, p19).

فالقديسة "كاترين" كانت مهمومة بالمجتمع ككل سواء من الناحية الدينية أو السياسية أو الاجتماعية، وإن دل ذلك فإنما يدل على نموذج للمرأة المفكرة فى عصر من العصور يرتفع فيه صوت الرجال ولا يكون للنساء دورًا إلا فى أضيق الحدود داخل الأسرة الصغيرة، وبذلك النموذج قد كسرت "كاترين" قاعدة أن العصور الوسطى لم يكن بها دورًا للمرأة الواعية بأمور الدين والمجتمع والسياسة؛ إذ كان لها دورًا تاريخيًا فى السجل الكنسى والبابوى بل وفى تاريخ الفكر المسيحى.

فإن كان قادة العصور الوسطى من قبل الكنيسة قد طمسوا دور المرأة فى أضيق الحدود فإن مكانتها موجودة منذ العصر الأول الميلادى مع بداية وجود الكتاب المقدس وأصبح لها مكانة فى المسيحية تحدد دورها وحقوقها وواجباتها وتساويها بالرجل فى المسئولية بلا تفاوت؛ ونجد ذلك بالبحث فى نصوص الكتاب المقدس؛ حيث خلقة المرأة الروحية الجديدة فى العهد الجديد، ودورها المؤثر جعل ذلك يبطل حجة الرجل الأولى فى اكتساب حقوق فائقة على المرأة بسبب قوته، وأصبحت المرأة بالروح القدس فى وضعها المسيحى الجديد مساوية تمامًا للرجل فى كل ما يخص بناء الإنسان الكامل الجديد، وتكميل العمل لاستعلان ملكوت الله؛ ونجد ذلك فى رسالة أفسس (أف 4: 12) يقول بولس الرسول: "لأجل تكميل القديسين، لعمل الخدمة، لبنيان جسد المسيح، إلى أن ننتهى إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح".

إذ أن قامة ملء المسيح "هنا ليس فيها " ذكر او أنثى بل إنسان واحد كامل" هى (الكنيسة) وهى (جسد المسيح) فالعهد الجديد أعطى للمرأة حياة جديدة بعد زمن العبودية فى العهد القديم، أعطى لها مكانة الرجل وأصبح لها القدرة على المنح والعمل والاجتهاد ولكونها مساوية للرجل، وهذا الإعلان جاء لها ليس من قبل مؤسسات حقوقية ولا بشرية وإنما من قبل الله.

فنجد المرأة فى عهد بولس الرسول فى القرن الأول الميلادى لها مكانة كبيرة فى الكرازة بكلمة الله وسط الوثنيين ولها دورًا روحيًا كبير فى نشر الإيمان المسيحى الحقيقى وسط الجماعة (رسالة بولس الرسول إلى اهل رومية 16: 1-3).

وأيضًا نجد مكانتها من حيث تساوى الرجل والمرأة على المستوى الروحى فى عصر الآباء حينما يقول إكليمندس الإسكندرى* "الرجل والمرأة لهما نفس القيمة الروحية" حيث إنهما متشابهان فى كل شيء فلهما الحياة واحدة والطعام واحد والتنفس واحد والحواس واحدة.. فكيف لا تكون لهما قيمة روحية واحدة. وبالتالى أيضًا سيرة روحية واحدة (متى المسكين، 1982، ص55).

يقول اكليمندس "إننا نعترف أن نفس الطبيعة تكون فى كلا الجنسين وبالتالى يكون لهما نفس القيمة الروحية". ويقول "إن محبة الحكمة واجبة للرجل والمرأة على حد سواء".

ويؤكد ذلك إكليمندس الإسكندري عندما يرى أن الرجل والمرأة لهما طبيعة واحدة وبالتالي قيمة روحية واحدة، وإن نفس الطبيعة يكون لها نفس القيمة الروحية بعينها، وهو لا يقصد بذلك أن المرأة من حيث كونها امرأة يكون لها نفس طبع الرجل؛ لأنه يرى أنه من اللائق جدًا أن يكون لكل من الجنسين ما يتميز به بحيث يكون أحدهما مؤنثًا والآخر مذكرًا، يقول:"فنحن نقر أن من خاصية المرأة أن تحبل وتلد، وذلك يختص بصفتها كامرأة ولا يختص بكيانها البشري العام، وأما فيما ينعدم الاختلاف بين الرجل والمرأة فإنهما يعملان نفس العمل ويشعران بنفس الشعور؛ لذلك ففي المجال الذي تتساوى فيه المرأة مع الرجل؛أي في مجال النفس، فإنها تصل إلى نفس الفضيلة، ولكن في المجال الذي تختلف عنه،أعنى بسبب صفاتها الجسدية، يكون من اختصاصها الحمل والتدبير المنزلي". (متى المسكين،1982، ص56- باسليوس المقاري،2000،ص172).

غير أن هذا الاختلاف الجسدي يعتبره اكليمندس اختلافًا مؤقتًا وموقوفًا على هذه الحياة الأرضية، إذ يستند إلى كلمات الإنجيل: "أبناء هذا الدهر يزوجون ويتزوجون، ولكن الذين حُسِبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات فلا يزوجون ولا يتزوجون.. بل يكونوا كالملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة" (لو 20 : 34-36).

* ولد عام 150 م ، وهو من آباء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وكان يرى أن المعرفة والإيمان لا يتضادان، للمزيد انظر: (Richardson.C.C,1953).

لـذلك ففـي المسـتوى الروحـي لا تختلـف المـرأة عـن الرجـل بـل يكـون لهمـا نفـس الفـرص الروحيـة، فـإن لهمـا نفـس الإيمـان، ونفـس الرجـاء ونفـس المحبـة، ويكـون لهمـا نفـس المُعلـم الإلهـي (Pedagogue) وذلـك مـا عرفتـه القديسـة "كـاترين" أن مـن ضـمن مصـادر التعـاليم الروحيـة التـى تحصـل عليهـا هـو المُعلـم الإلهـي، فكانـت تتفـق مـع اكليمنـدس فـي أن المعرفـة والإيمـان لا يتعارضان لأن مصدرهما واحد وهو المُعلم الإلهي.

بـل ويزيـد اكليمنـدس مـن مكانـة المـرأة حينمـا رأى أنهـا تتسـاوى مـع الرجـل فـي الاستشـهاد مـن أجـل الفضـيلة والحريـة والخـلاص؛ وبـذلك يكـون قـد فـاق الـذين سـبقوه فـي التأكيـد علـى تسـاوي الرجـل والمـرأة علـى المسـتوى الروحـي معـولاً علـى الكتـاب المقـدس: "الرجـل لـيس مـن دون المـرأة، ولا المرأة من دون الرجل في الرب" (1 كو 11 : 11).

ويقـول أيضًـا تأكيـدًا علـى دور النسـاء :" لقـد خلـق النسـاء قـادرات أن يصـلن إلـى كـل بـر وكـل فضـيلة". وقـد أكـد أيضًـا علـى دور المـرأة المتعقلـة حينمـا قـال :"إن المـرأة المتعقلـة ينبغـي أولاً أن تحـاول إقنـاع رجُلهـا أن يرافقهـا فـي الطريـق المؤديـة إلـى الحقيقـة، ولكـن إن تعـذر ذلـك وجـب عليهـا أن تسـعى وحـدها نحـو الفضـيلة، وأن تطيـع رجلهـا فـي كـل شـيئ إلا فيمـا يختص بالفضيلة والخلاص" (متى المسكين ، 1982 ، ص 58).

فالكتـاب المقـدس والتقليـد الكنسـي الـذي حـافظ عليـه الآبـاء أمثـال اكلمنـدس الإسـكندري وغيـره يؤكـدان دور المـرأة الواعيـة العاقلـة ودورهـا الروحـي نحـو الكنيسـة والمجتمـع، وذلـك مـا أهملـه قـادة الكنيسـة فـي بدايـة العصـور الوسـطى، وقضـوا علـى دور المـرأة الـذى نـادى بـه الكتـاب المقـدس والتقليـد الكنسـي، ولكـن وكمـا عرضـنا نموذجًـا متمـثلاً فـي القديسـة "كـاترين" وفلسـفتها الروحيـة الصـوفية نجـدها تطبـق ذلـك؛ ولـذلك فـان مصـدر تعاليمهـا لـيس هـو الـرب مـن خـلال الكتـاب المقـدس فقـط، ولكـن أيضًـا التقليـد الكنسـي المتمثـل فـي شخصـيات عرضـت اللاهـوت والفكـر المسـيحي بـأدوات الفلسـفة. فبالإضـافة إلـى اكليمنـدس الإسـكندري نجـد العلاَّمـة أوريجـانوس• الـذى أكـد علـى دور المـرأة فـي الفكـر الكنسـي إذ يـرى أن مـن حـق المـرأة أن تتنبـأ كمـا يتنبـأ الرجـال كمـا كانـت دبـورة النبيـة فـي العهـد القـديم. (قضـاة 4 : 4) وأن تحصـل علـى رتبـة (الشماسـات) وهـى تسـليم رسـولي وذلـك تعـويلاً علـى

• من آباء مدرسة الإسكندرية اللاهوتية (ولد ما بين 184: 185م) وهو أبو اللاهوت المنهجي، وأخذ المنطق وسيلة لشرح الإيمان وقد تعلم أوريجانوس وأفلوطين معًا على يد مدرس وثني هو أمونيوس سِقاس لمدة خمس سنوات تقريبًا وأصبح معلمًا لاهوتيًا صاحب منهج فلسفي. (Alexander.R.S,1960,p52:53).

رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية إذ يقول : "أُوصي إليكم بأختنا فيبي التى هى خادمة (أي شماسة) الكنيسة في كنخريا" (رو 16: 1).

وفي هذا النص يدعو إلى أمرين: الأول، إنه توجد شماسات في الكنيسة. والثاني،إنه يجب الاختيار لهذه الرتبة لمن تكون قد ساعدت الكثيرين وازدادت في الأعمال الصالحة حتى تحصل على هذه الرتبة (متى المسكين،ط1، 1982،ص76).

وأيضًا ذُكر فى الدسقولية (أي تعاليم الرسل) فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى دور المرأة المجتهدة العاملة الفاضلة الداعية للإيمان وللرجاء. ونجد أيضًا نظرة كيرلس الكبير إلى المرأة وهو امتداد للتقليد الكنسى على أنه يستحيل التفريق بين خلقة الرجل وخلقة المرأة على مستوى الطبيعة البشرية؛ لأن نفس المرأة كنفس الرجل من حيث الكفاءة الروحية والعقلية، وبذلك فيمكن للمرأة أن تُحرز من الفضائل كما يُحرز الرجل تمامًا، فالكمال بتمامه مفتوحًا لكل من الرجل والمرأة (متى المسكين، 1982 ، ص81 & وليم سليمان قلادة، ط2، 1979).

وذلك ما استوعبته القديسة "كاترين السينية" فى القرن الرابع عشر من العصور الوسطى وهو أن للمرأة دورًا هامًا فى الفكر والاجتهاد الدينى، بل ودورًا رائدًا للتوجيه السياسى والعمل الاجتماعى فهى تعتبر نموذجًا رائعًا للمرأة المفكرة والباحثة عن المعرفة فى العصور الوسطى.

قائمة المراجع

أولاً- المراجع العربية:

1. أوغسطينُس، مدينة الله، نقله إلى العربية الخور أسقف يوحنا الحُلو ،المجلدان الثاني والثالث، ط1، دار المشرق ،بيروت،2002.
2. أوغسطينوس، اعترافات القدِّيس أوغسطينوس، نقلها إلى العربية الخور يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، ط 7، 2003.
3. أوغوسطينوُس: خواطر فيلسوف فى الحياة الروحية، ط7، دار المشرق، بيروت، 2004.
4. ايسذورس، الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، ج2، مكتبة المحبة 1991.
5. باسيليوس المقاري، دراسات في آباء الكنيسة، مطبعة دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط2، 2000.
6. متَّى المسكين، الكنيسة والدولة، مطبعة الأنبا مقار، وادي النطرون، ط1، 1963.
7. متَّى المسكين، المرأة: حقوقها وواجباتها في الحياة الاجتماعية والدينية في الكنيسة الاولى، مطبعة الأنبا مقار، وادي النطرون، ط1، 1982.

8. وليم سليمان قلادة (تحقيق وتقديم)، الدسقولية (تعاليم الرسل)، دار الثقافة، القاهرة، 1979.
9. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار المعارف بمصر، ط5، 1969.

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

10. Boulding, Cecily, St Catherine of Siena's 'Mystical Apprehension' of God,The Dominican Council/Blackwell Publishing Ltd, UK, 2004

11. Cahal.P. J., Saint Catherine of Siena's Pedagogy of the Cross,The Dominican Council/Blackwell Publishing Ltd, UK. 2006.

12. Catherine of Siena, The Dialogue of Saint Catherine of Siena,Translated by Algar Thorold, Originally published in 1907 by Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., Ltd., London, Digitized and English Modernized by Harry Plantinga, 1995.

13. Copleston.F.C., Medieval Philosophy: An Introduction, Courier Dover Publications, Mineola (New York) , 2001.

14. *Gilby, Thomas .,St .Thomas Aquinas On Philosophical Text . USA . The Labyrinth Press .1982.*

15. Gilson, Etienne., The Philosophy Of . St. Thomas Aquinas, Translated by Bullough. E., edited by Elrington.R.G, Dorset Press, New York,1948.

16. Heffern. R, St. Catherine of Siena, National Catholic Reporter, NATIONAL National Catholic Reporter publishing,April2009

17. Hook.J,St.Catherine of Siena,History Today,July 1980.

18. Inglis, John., On Aquinas, Wadsworth, Belmont (USA), 2002

19. Luongo.F.T,The Saintly Politics of Catherine of Siena , Cornell University Press, N.Y , 2006.

20. Luscombe, David,. A History Of Western Philosophy: II, Medieval Thought, Oxford University Press Inc, New York. 1997.

21. Mcdermott, T, Catherine of Siena's Teaching on Self-Knowledge, The Dominican Council/ Blackwell Publishing Ltd. UK, 2007

22. PARSONS.G.A, From Nationalisme to Internationalisme: Civil Religion and the Festival of Saint Catherine of Siena, 1940-2003. Journal of Church and State, 46(4), 2004.

23. Pelikan, Jaroslav.,The Emergence of The Catholic Tradition, The University of Chicago,1975.

24. *Richardson.C.C,Early Christian Fathers,USA,1953.*

25. Schmemman. Alexander, Historial Road of Eastern Orthodoxy, SVS,USA,1960.